

السلطان الغورى

مطالعة في الادب والعلم وأثره فيهما

للدكتور عبد الوهاب عزام

ضربنا بهذه الخلاصة الوافية للحطاب القيم الذى ألقاه صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في مؤتمر الاشرقيين ببركسل ؛ فنال إعجاب العلماء المهتمين بطرافة موضوعه ، ودفقة بحقه ، وسداد طريقته (المحرر)

— ١ —

السلطان قانصوه الغورى أحد سلاطين المماليك بمصر . حكم

من سنة ٩٠٦ إلى سنة ٩٢٢ هـ

ولست أريد أن أعرض للأحوال السياسية التى تولى فيها، والأحوال التى أزلت ملكه وقضت على دولة المماليك ؛ ولكنى أريد أن أذكر طرفاً مما عرف من صلته بالأدب والعلم كان ذا حظ وافر من العلوم الدينية : التوحيد والتفسير ، والفقه ؛ وكان ذا نصيب من التاريخ منبياً بقراءة التواريخ والفصص وسماعها ، كما كان ذا بصير بالأدب ، وله نظم بالمرية والتركية ؛ وكانت له مشاركة فى الموسيقى والغناء ، وله موشحات كان يُتغنى بها

— ٢ —

وتاريخ الغورى مفصل فى كتب التاريخ ولا سيما كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لمحمد بن إياس ؛ ولكن سيرته فى الأدب والعلم تنجلي فى ثلاثة كتب لم تنل نصيبها من العناية وفيهما للتورخ مجال واسع

١ — كتاب نفايس المجالس السلطانية، فى حقائق الأسرار القرآنية : ألّفه حسين بن محمد الحسينى ، وهو شريف كما يؤخذ من اسمه ومن عبارات فى ثنايا الكتاب ، ويظهر أنه تركى ساح فى إيران والبلاد الشرقية ، وقد نظم بيتين بالتركية فى رثاء ابن السلطان الغورى ، وروى من شعر حسين بيقرا . وقد على مصر فأقام عشرة أشهر شهد فيها مجالس السلطان الغورى ، وجمع فى كتابه هذا بعض الباحث التى كان السلطان والعلماء يتكلمون فيها والمجمة ظاهرة فى كتابته حتى اسم الكتاب فقد سماه

« نفايس مجالس السلطانية فى أسرار مجالس القرآنية » حذف اللام من المجالس والأسرار

والنسخة التى بأيدنا هى النسخة التى كتبت للسلطان وأهدت إليه . وقد كتب عليها الصيغة المتأداة :

(برسم خزانة المقام الشريف ملك البرين والبرين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف قانصوه الغورى خلد الله ملكه)

ويقول المؤلف فى مقدمة الكتاب : أما بعد فإني لما تشرفت فى خدمة أشرف الملوك وأعظم السلاطين ظل الله فى الأرضين ، — ناظر أربع حُرُم رب العالمين ، سلطان العرب والمعجم ، صاحب البند والعلم ، حافظ بلاد الله ، ناصر عباد الله ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ملك الأشرف عزيز مصر أبو النصر قانصوه الغورى ، أعز الله أنصاره ، وضاعف أقداره — ولازمتُ بابه الشريف عشرة أشهر، وجمعت درر ذرائده فى سمط العبارة، ونظمت جواهر زواهره فى خيط الكتابة . فان بابه الكريم بحج الأفاضل، وجنابه العظيم ببحر الفضائل والفواضل . هذا مع ما خصه الله تعالى من الفضائل النفيسة، والمناقب الشريفة اللطيفة، أعطاه من الفهم أوفره، ومن الدهن أغزره، ومن الحلم أشرفه ، ومن العلم أطفه ، ومن الرتب أقواه ، ومن الملك أعلاه ، ومن الشجاعة أبلغها ، ومن السخاوة أعظمها ، كل هذه الصفات خصه الله تعالى بجموعها . ولهذا ارتقى إلى الدروة العالی، التى كانت نهاية درجات الأفاضل الأهالی. وفضل هذا السلطان على سلاطين الدنيا كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا .

وكل هذه الأوصاف والمناقب بما قرن به من محبة المسلم والعلماء والتفتيش عما وضمته الحكاه فى كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر فى وصف هذا المظهر إنه هو سلطان العلماء المحققين ماهو كذب فى حقه، أو يقول فى مدحه : انه هو سلطان العارفين ماهو عيب فى وصفه »

وجمل كتابه فى مقدمة وعشر روضات . والمقدمة قصيرة تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغورى . والروضات العشر يذكر فى كل واحدة منها مجالس السلطان فى شهر . وكانت المجالس تجتمع فى كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثاً .

وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائة . وأول مجالس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر، وآخرها مجالس رجب

وكالبحث في شروط الامامة في مجلس السلطان وقول مؤلف الكتاب: فان لم يوجد من يستوفي الشروط من ولد اسماعيل جاز أن يُوتى واحد من المعجم أو من ولد إسحاق. وقوله بعد هذا: الحمد لله والمنة، الجركس من ولد إسحاق. وجميع هذه الشروط موجودة في السلطان الأعظم

بل نجد في الكتاب بحثاً صريحاً في نيابة النوري عن الخليفة العباسي وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه في الأمور الشرعية. ويشهد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء في هذه المسألة فيحقر المؤلف الخليفة وبمعظم السلطان، ثم يذهب يستغنى العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة

ويرى الفاري أحياناً اهتمام السلطان بتعليم المهالك وإحضارهم معه من حين إلى آخر إلى مجلسه ليقرءوا أمامه ويمتنحهم وهكذا يجد الفاري في الكتاب مسائل مهمة لا يفتقر بها في كتب التاريخ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره، ويتبين مقدار اطلاعهم ودرجة تفكيرهم

٢ - الكتاب الثاني: اسمه الكوكب الدرّي في مسائل النوري، وهو يحتوي على ألفي مسألة وأجوبتها من المسائل التي وقع البحث فيها في مجالس السلطان النوري أيضاً. ولقدنا الجزء الأول من الكتاب وفيه ألف مسألة في ٣٣٨ صفحة. والنسخة مكتوبة في عهد النوري. ويظهر أنها نسخة المؤلف. وعليها خطوط ثلاثة من علماء وقته المعروفين يشهدون بأنهم اطعموا على الكتاب. وبعض هذه الخطوط مؤرخ بالسنة التي تم فيها كتابة هذا الجزء

ويقول المؤلف في آخر الكتاب: « وكان الفراغ منه في مسهل شهر ذبيح الآخر سنة تسع عشر وتسعمائة »
ويقول في المقدمة: وبعد فاني لما رزقني الله سعادة السارين وتشرفت مدة عشر سنين بخدمة سلطان الحرمين الشريفين خان الأعظم وخاقان المعظم، مولى ملوك الترك والمرب والمعجم حافظ بلاد، الله ناصر عباد الله، وارث ملك يوسف الصديق، إمام الأعظم بالحق والتحقق، مظهر الآيات الربانية، مظهر الأسرار الروحانية، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، الملك الأشرف ذو الفيض النوري، أبو النصر قائم النصر النوري الخ... قصدت أن أجمع در فوايد

فهي عشر روضات في أحد عشر شهراً لأن السلطان لم يجلس في شهر ذي القعدة، لوفاة ولده محمد.

والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته، ويذكر الإمام الذي يحضر المجلس وكبار الحاضرين، ثم يذكر المسائل التي طرحت للبحث في المجلس. يقول في المجلس الأول:

« طلعت يوم الخميس ثالث وعشرين رمضان المبارك في تاريخ سنة عشر وتسعمائة، وكان في خدمته ناصح الملوك والسلاطين شيخ حسن چاي، وكان الامام في تلك الليلة شيخ شمس الدين السمديسي. وقعدوا في الأشرافية ستين درجة. ووقع في تلك الليلة أسئلة. السؤال الأول الخ... »

ويقول في المجلس الثاني من شوال:

« طلعت يوم الأحد تاسع شهر شوال، وقعدوا خمسين دقيقة في البيسيرية الأشرافية. والامام كان شيخ محب الدين المسكي، وشيخ الاسلام كان حاضراً. وخواجه غياث الدين ده دار، وقاضي جمال الدين الخشاب، وكثير من الناس كانوا في الخدمة الشريفة والعتبة المليية »

يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرتضى السلطان جوابه أو يناقشه، وأحياناً يبدأ أحد الحاضرين الكلام. وأكثر المسائل دينية وبمضها تاريخية، ومنها ألتاز في موضوعات شتى، وقصص عن الملوك وغيرهم وأحياناً يصف المؤلف مشاهد ويروي أحاديث لها في التاريخ خطر كبير

مثلاً يصف إحياء السلطان المولد النبوي، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا، وما قملوا في هذا المنزل، وبين كيف جلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إليه كبار الدولة وينشد كل منهم شعراً في مدحه وكيف يقابلهم السلطان. وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمك بالله خليفة مصر تقدم « وباس الأرض، كفرض العين وعين الفرض » وأنشد:

إن الخلافة ثوب قد خصصت به إذا لبست فلم يفضل ولم يعز ما أودع الله في أحداقنا بصراً إلا لتفرق بين الدر والخرز وكذلك بحر الفاري بمسائل ذات خطر في التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: « الجركس من الناسنة فهم عرب »

من المقرين إلى الأمير جهم بن محمد الفاتح . وتوفي بمصر سنة ٩٢٠
وقد أسره السلطان النوري أن يترجم شاهنامه الفردوسى إلى
اللغة التركية فترجمها في عشر سنين آخرها سنة ست عشرة وتسعمائة
وقد نظم الشاعر في مقدمة الكتاب فصلاً بين فيه سبب
نظمه . وخلصته أن السلطان كان ولماً بقراءة التاريخ والقصص ،

وكان في خزائنه كتاب الشاهنامه، فدعا الشرفى وقال: إني أحب
هذا الكتاب وأعرف ما تضمنه من المواعظ والأخبار وأريد أن
يترجم إلى اللغة التركية ليسهل علينا إدراك معانيه . وأعرف أن
لك مقدرة على نظمها، فترجمه إلى التركية . فقال الشاعر: أيها
السلطان العظيم ! كيف تريد أن تسهل عليك معانيه بالترجمة وأنت
تعرف لسان المعجم أحسن من المعجم ؟ بل هو أسهل عليك من
اللغة التركية ، وليس بك حاجة إلى ترجمته

قال السلطان : أريد أن يبقى ذكراً بعدى ، فإنما يخلد
الإنسان بالذكر الحسن

قال الشاعر: ولكن نظمي ليس من البلاغة والسلاسة بحيث
يعجب السلطان ؛ وليس يسيراً أن يبلغ الكلام الدرجة التي
ترسبك ، والشاهنامه كتاب غير الترجمة

قال : دع الاعتذار ولا تمتل فأنت من آل الرسول . فشمّر
للأمر ، وإن لم يكن كلامك مزخرفاً مصنفاً فليست أبلى . لست
أكلفك كلاماً ملوكياً ، ولكن أريد أن تقول باللسان التركي
قولاً درويشياً

يقول الشاعر : فلم أجد بداً من امتثال الأمر على نقل العبد
وعلى بعد ما بينى وبين الفردوسى ، وشرعت في نظم الكتاب في
وزن آخر غير وزن الفارسي الخ ...

— ٢ —

في مقدمة الكتاب وخاتمة نحو ألف بيت ؛ يبدأ الكتاب
بالنحميد ، ومدح الرسول والخلفاء على سنة شعراء الفرس
والترك ، ثم يذكر سيرة ممالك مصر منذ سنة ٩٧٠ هـ ، يذكر
قائقيباي والملك الدين خلفوه في فترة الاضطراب التي بينه وبين
النورى ، ثم يفيض في مدح السلطان ، ثم يبين سبب نظم
الكتاب ويشرح في ترجمة الشاهنامه . وفي الخاتمة يمدح السلطان
ويبين أنه نظم الكتاب باسمه وأتمه في دولته ، ويتكلم عن أخلاق

جلسه في سمط العبارة والكتابة ، وأنظم جواهر زواهره في سلك
الاسمارة والكتابة ، لأنه ورد في كلام بعض الأنام : كلام الملوك
ملوك الكلام ، سيما إذا كان البحوث عنه تفسير كلام رب العالمين ،
ونكات أحاديث سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، ومباحث
سلطان الاسلام الخ ...

إلى أن يقول : وجدت شيئاً يسيراً وقائى منه شيء كثير ؛
فجمعت من بحار فوايده قطرة ، ومن شمس محاسنه ذرة ، لم أقدر
أن أجمع إلا واحداً من ألف بل من مائة ألف ... فجمعت من
المسائل المشككة أنى مسألة ، وسميته بالكوكب الدرى في مسائل
النورى ...

وفي هذه المقدمة شبه بمقدمة الكتاب الأول ، وبعض
عباراتها واحدة ، وبين تاريخهما زهاء عشر سنين

وهذا الكتاب ليس مقسماً على المجالس كالكتاب السابق ،
بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل . والمطلع على الكتاب يرى
صوراً من أفكار علماء مصر وأسمائها في ذلك العصر . يرى إلى
المسائل الدينية وهي معظم الكتاب ، مسائل تاريخية ، وجغرافية ،
ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عن
بنى الأهرام أو عن سبب زرقة السماء أو السؤال عن كيورث
أول ملوك الشاهنامه أو كان قبل نوح أو بعده ، أو عن شهر
الحرم لساذا جبل أول التاريخ الهجرى ، أو هل الأرض أفضل
أم السماء . ويجد الفاري في الحين بعد الحين فكاهة من السلطان
أو نادرة ، وبمرض في المجالس ذكر الملوك المناصرين والأمراء
الدين وقدوا على السلطان كان السلطان سليم . ويرى بعض الأسئلة
الدينية التي سألها هؤلاء الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه
لا ريب أن هذا الكتاب على تفاعلة معظم المسائل التي يدور
عليها البحث ، يسور بمض النواحي الفكرية والاجتماعية في مصر
والعالم الاسلامي ، في ذلك العصر

٣ - النورى والشاهنامه :

— ١ —

كان حسين بن حسن بن محمد الحسينى الآمدى أحد شعراء
التركية في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى
وشهد عهد السلطان النورى في مصر ، ولعله قرأ إليها إذ كان

ثاني شهر ذي الحجة الحرام سنة ست عشر وتسعمائة من هجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، كاتبه ناظمه وهو أضعف العباد حسين بن حسن بن محمد الحسيني الحنفي في مدينة مصر حرمها الله من الآفات والبليات في جامع المرحوم المغفور السعيد الشهيد الملك المؤيد شيخ سقى الله عهدته بالرحمة والمغفرة وبعد هذا سطران بالتركية :

« بوكتابك نظمته مولانا السلطان عن نصره النورى أول سلطنت يلنده ابتدا إيلدك ، أون يلده تمام أولندى ، أونك دولتده إتمامه أرشدى »

حسبنا الله ونعم الوكيل . ولى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(ومعنى العبارة التركية أنه بدأ الكتاب في أول سنة من عهد السلطان وأتمه في عشر سنين في دولته)

— ٥ —

والنسخة في ١٧٠ ورقة كبيرة أى ٢٣٤٠ صفحة، كل صفحة ٢٥ سطراً، وهي مذهبة، وبها اثنتان وستون صورة ملونة. وإزاء كل صورة في الحاشية عنوانها بخط مذهب. ولهذه الصور قيمتها في الدلالة على التصوير المصري في ذلك العصر

— ٦ —

ثم يزيد هذه النسخة نقاسة وقائدة أنها واضحة الخط تميز فيها الحروف الثلاثة ب، ج، ز، من الحروف العربية ب، ج، ز، بوضع نقطتين تحت الحرف أو ثلاث. وهذا نادر في الكتب القديمة، وهي بعد هذا مشكولة شكلاً تاماً لا يرتاب القارىء في ضبط كلمة منها

فبين أيدينا زهاء ستة وخمسين ألف بيت من الشعر التركي في القرن العاشر الهجري مضبوطة ضبطاً تاماً، وقيمة هذا في اللغة والأدب ليست هينة

— ٧ —

عرفنا من هذه الكتب أن السلطان كان مولماً بالأدب وأن له نظماً بالعربية والتركية. ولدينا نماذج من نظم السلطان في موشح في كتاب نقائس المجالس، وقصيدتين وموشحين بالعربية، وموشح بالتركية في كتاب تاريخ حلب للطبايح، وعتد بعض أدباء حلب قطع أخرى من شعر السلطان، وفي استانبول مجموعة من شعره عبر الراهب عزام

السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب، ومعرفته لغات كثيرة، ومشاركته في الانشاء والشعر ونظمه في توحيد الله ومدح الرسول، وإلامه بالموسيقى، ونظمه موشحاً للغناء، ووامه بقراءة التواريخ الخ... ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم، ويذكر الفنانين والموسيقيين الذين يطربون السلطان في مجالسه

ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفاً مفصلاً فيعدد تسعاً منها. والخلاصة أن في مقدمة الكتاب وخاتمه ما يكشف بعض تاريخ النورى ولا سيما الجانب الأدبي منه، ويبين طرفاً من تاريخ — — بعد حساب المبالغات الشعرية .

— ٣ —

هذا الكتاب له قيمة عظيمة في تاريخ اللغة التركية فهو سجل جامع لألفاظ اللغة التي كانت مستعملة في القرن العاشر الهجري ولقواعد النحو والصرف التي كانت متبعة إذ ذاك .

وفيه كذلك صورة مفصلة للضرورات الشعرية التي كانت تعانها اللغة من بعض الشعراء في ذلك العصر، والتي ذكرها ضيا باشا في مقدمة « الخرابات »

— ٤ —

ويزيد في قيمة الكتاب ونايذته، أن عندنا منه نسخة الأم أعنى النسخة التي كتبها المترجم بخطه، وقدمها إلى السلطان؛ فعلى صفحة العنوان نجد هذه الصيغة :

« برسم خزانة مولانا المقام الشريف السلطان مالك رقاب الأمم، السلطان المالك، الملك الأثرى أبو النصر قانصوه النورى عن نصره وخلد ملكه .

وفي آخر الجزء الأول :

« وقع الفراغ من تحرير المجلد الأول في أول ليلة من شعبان المبارك في محروسة مصر صانها الله من الآفات، في قبة الحسينية لأمير يشيك، نعمده الله بالرحمة والفران » ،

كاتبه ناظمه أضعف عباد الله حسين بن حسن بن محمد الحسيني سنة ثلاث عشر وتسعمائة. والحمد لله الخ ..

وفي آخر الجزء الثاني :

تم الكتاب بعون الملك الوهاب فحوة النهار يوم الأحد